

الخصاء والخصيان في بلاد المغرب والأندلس

عبد الإله بنمليح

Abdelilah Belmlih

Eunichisme et eunuques au Maroc et en Andalousie

Résumé

La castration des esclaves est l'un des phénomènes sociaux observés dans l'histoire de l'Occident musulman. En quoi consistait cette opération ? Quelles furent ses principales manifestations dans les palais des khalifes, et quels étaient ses effets organiques et psychiques ? Cet article tente d'apporter des éclaircissements à ces questions.

Castration and Eunuchs in Morocco and Andalusia

Abstract

Slave castration is one of the social phenomena observed in the history of the Muslim West. What does such an operation involve? What were its main manifestations in the caliphate palaces, and what were its organic and psychic effects?

الخصاء والخصيان في بلاد المغرب والأندلس

عبد الإله بنمليح

خضع الرقيق لممارسات قاسية جدا في أحيائين كثيرة. وقد لازمت هذه الممارسات الرقيق في مختلف الجهات والعصور على حد سواء. وإذا كان تغيير اسم العبد أو الأمة أحد أبرز هذه الممارسات، التي كانت تستهدف قطع كل صلة له بأسلافه، وإذا كانت المتاجرة بجسد الأمة، والرمي بها إلى دور الدعارة والمجون، يعد ممارسة شنيعة لا تقل خطورة عن سابقتها، فإنه وجدت ممارسة شاعت في عدة جهات من العالم وفي أزمنة مختلفة، كان لها أثر كبير في نفسية الرقيق، وانعكست سلبا على حياته وسلوكه وقدراته الفكرية والجسمانية: إنها عملية الخصاء.

استهدف الخصاء الذكور من الرقيق، وتم السعي من وراء ذلك إلى تجريده من فحولته عبر شروط ومواصفات دقيقة وخطيرة. وسنعرض في هذه المساهمة لخصاء الرقيق الأبيض والأسود والآثار العضوية والنفسية المترتبة عنه. ثم موقف الإسلام من الخصاء، لنقف عند انتشاره في المجتمع الإسلامي بصفة عامة، وفي المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط بصفة خاصة.

عرفت المجتمعات القديمة الخصاء، واشتهرت جهات عديدة ومدن بهذه العملية ويجدر أن نتوقف عند طبيعتها في بعض المجتمعات الإسلامية. تحدث المقدسي⁽¹⁾ عن الطريقة المتبعة في الخصاء في الأندلس، والترتيبات المرافقة لها: "قال بعض يمسح القضيب والمزودان في مرة واحدة، وقال بعضهم يشق المزودان وتخرج البيضتان ثم يجعل تحت القضيب خشبة ويقط من أصله". ويضيف نقلا عن أحدهم "وإذا خصوهم جعلوا في منفذ البول مروود رصاص يخرجونه أوقات البول إلى أن يبرؤا كي لا يلتحم"⁽²⁾.

¹ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن البناء المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تقديم وفهرسة محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987، ص.

وإذا كانت الطريقة التي يقدم المقدسي عنها هذه المعلومات، تهم خصاء الصقالبة في الأندلس، فإن ابن فضل الله العمري⁽¹⁾ يقدم طريقة ثانية، تهم السود في بلاد الحبشة، لا تختلف عن الأولى سوى في شدة وحشيتها، إذ تعوض المروء الرصاصي بالموسى "يعاد عليهم الموسى مرة ثانية، لينفتح مجرى البول لأنه يكون قد اسد عند الخصي بالقريح".

وحول آثار الخصاء العضوية، وقفنا على رأي خبير في الموضوع، وهو أحد تجار الرقيق، الذي يقول "ومع هذا فالذي يموت منهم أكثر من الذي يعيش.. ولولا حملهم إلى مكان يعالجون به ما سلم... أحد منهم"⁽²⁾. بمعنى أن الخصاء مجردا كان يؤدي إلى الموت، لولا تدارك المخصيين بعلاج..

ويعلق أحد الباحثين على عملية الخصاء، أن قلة قليلة من الرجال الشباب كانت تخرج سالمة منه، فقد كانت موجعة جدا وخطيرة، في وقت لم يكن يعرف فيه التخدير الطبي وتطهير الجرح⁽³⁾.

وقد تم التعامل مع الرقيق خلال الخصاء، تعاملًا تمييزيًا، ففي الوقت الذي كان فيه العضو التناسلي للرقيق الأسود يبتز نهائيا ومعه البيضتان، كان الرقيق الأبيض، يخضع لعملية جراحية، تجعله يحافظ على إمكانية الجماع، ومن تم اتخاذ الزوجات والخيلات⁽⁴⁾.

والواضح أن R. BRUNSCHVIG لم يفهم طبيعة الخصاء، وأحد أبرز أهدافها، وهو قطع أية صلة للخصي بالجنس الآخر؛ ذلك أن حفاظ الخصي على إمكانية إقامة علاقة جنسية، يرتبط بعملية الخصاء وظروفها، أكثر مما يرتبط برغبة السيد أو تاجر الرقيق. مصداق ذلك سؤال وجهه المقدسي إلى عريب الخادم، وكان من أهل المعرفة بالخصاء، حول جعل الإمام أبي حنيفة للخصي فراشا، أي يلحق به ما تلد زوجته، فأجاب الخبير: "اعلم إنهم إذا قربوا للاختصاء شق الخصوتان فأخرجت البيضتان فربما فزع الصبي فصعدت إحدى البيضتين إلى جوفه وطلبت فلم توجد في الوقت، ثم تنزل بعدما التحم الشق، فإن كانت اليسرى كانت له شهوة ومني، وإن كانت اليمنى

¹ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، ط. 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988، ص. 43.

² - نفس المصدر والصفحة.

³ - Yves VERBEEK, *Histoire de l'esclavage de l'antiquité à nos jours*, éd. Famot, Genève, 1976, T. 1, p. 192.

⁴ - Robert BRUNSCHVIG, Abd, *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, Leiden E.J.Brill, éd. Maisonneuve, et Larose, Paris, vol. 1, 1975, p. 34.

خرجت له لحية⁽¹⁾. بل إن فضول المقدسي دفعه إلى عرض هذا الرأي على خصي، له لحية غير كثيفة، فأج: "قد يجوز هذا لأن إحدى بيضتي صغيرة، وكانت لحيته نزرا خفيفة"⁽²⁾.

كما أن الباحث أحمد مختار العبادي⁽³⁾ - شأنه شأن R. BRUNSCHVIG - لم يتوصل إلى كنه عملية الخصاء، عندما فسر ما جرت عليه عادة بعض زعماء الخصيان من اتخاذ الحريم، حيث فهم منه أن القصد هو المباهاة والتشبه بخلفاء وأمراء البلاط، إلى جانب الرغبة في عدم حرمان أنفسهم من معايشرة النساء. والصواب ما أثبتته الخبر للمقدسي، وأكدته له أحد الخصيان، دليلنا على ذلك أن أحد قادة الأمير الأموي الحكم الثاني، ويدعى غالب "حافظ" على فحولته، فقد ولدت له مولودة، سماها أسماء، أصبحت زوجة لمحمد بن أبي عامر⁽⁴⁾.

وإلى جانب عقم الخصي، بعد نجاته من الموت، هناك آثار عضوية أخرى تتمثل في تميز البعض بلحية خفيفة⁽⁵⁾، أو منعدمة تماما، وهو ما يستفاد من رواية تصف الأمير الأغلب محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أنه "كان كوسجا، لا لحية له كأنه خصي"⁽⁶⁾. أو في رواية ابن الأبار⁽⁷⁾ "كان وجهه وجه خصي ليس فيه إلا شعرات يسيرة". وكان أبو حيان التوحيدي⁽⁸⁾ أكثر دقة وتفصيلا، حين ربط الخصاء باختفاء الشعر ليس في اللحية فقط، بل في الإبطين والعانة، ولذلك علاقة بتوقيت الخصاء في عمر الرقيق. يذكر في هذا الصدد: "إذا خصي الإنسان قبل احتلامه لم ينبت في جسده الشعر الذي يتأخر نباته، وإن خصي بعد احتلامه فإن ذلك الشعر

1 - المقدسي، م. س.، ص. 200.

2 - نفس المصدر والصفحة.

3 - أحمد مختار العبادي، الصقالية في إسبانيا، المعهد المصري للدراسات الإسلامية

بمريد، 1953، ص. 20.

4 - E. LEVI-PROVENÇAL, Histoire de l'Espagne musulmane, éd. Maisonneuve et Brill, Paris-Leiden, 1950, T.2, p. 126.

5 - المقدسي، م. س.، ص. 200.

6 - لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويق قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، 3: 20.

7 - أبو عبد الله محمد ابن الأبار القضاعي البلنسي، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، ط. 1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963، 1: 169.

8 - كتاب الإمتاع والمؤانسة، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.، 1: 160.

يزول، ما خلا شعر العانة فإنه يبقى". بل إن فضول التوحيدي⁽¹⁾ بلغ حدا جعله يقرر تمييز الخصي عن المرأة والرجل، من حيث عدد الأسنان، فإذا كان الرجل يتوفر على 32 سنا والمرأة على 30 سنا فإن "أسنان الخصي ثمانية وعشرون سنا" فقط.

وبإلى جانب هذه الآثار العضوية، هناك تداعيات أخرى للخصاء، تتمثل في طول العمر، وإن كان الأمر في حاجة إلى دراسة علمية مختصة. يورد الأمير عبد الله بن بلكين رواية الجاحظ، وهو يناقش آثار الجماع وتبرم الفيلسوف اليوناني سقراط منه، باعتباره "مهرم للجسم ومسرّع إلى الفناء"⁽²⁾. وتقول رواية صاحب كتاب الحيوان: "الخصي إنما طال عمره من أنه لا يجامع"⁽³⁾.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الآثار الخطيرة آثار نفسية ترتبط بالتدخل في التطور الطبيعي للخصي، مما يحول بينه وبين إقامة علاقة جنسية ومن ثم اجتماعية بمحيطه. ويبدو التأثير النفسي المباشر عندما يصبح الخصي أداة طيعة في يد سيده⁽⁴⁾.

وأمام كل هذا ما موقف الإسلام من الخصاء؟

بالنظر إلى الآثار العضوية والنفسية لعملية الخصاء، كان من الطبيعي أن يقف الإسلام منها موقفا صارما. فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمح بخصاء الغنم لأنها "تراد للأكل وخصاؤها لا يمنع من ذلك بل هو صلاح للحومها وتطيب لها"⁽⁵⁾، وذلك بخلاف الخيل التي نهى الرسول عن خصائها لأنها "تراد للركوب والجهاد وذلك ينقص قوتها ويضعفها ويقطع نسلها"⁽⁶⁾. أما بالنسبة للإنسان، فقد ورد الحديث، رادعا للخصاء "من قتل

1 - نفس المصدر والجزء والصفحة.

2 - ابن بلكين، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، نشر وتحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1955، ص. 198.

3 - نفس المصدر والصفحة.

4 - VERBEEK, op. cit., T 1, p. 196.

5 - أبو الوليد محمد ابن رشد القرطبي، المقدمات الممهدات...، تحقيق: محمد حجي، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، 3: 472؛ عبد الله ابن أبي زيد القيرواني، رسالة، نشر: أحمد أحمد أبو السعود وعثمان الطيب، كاتو (نيجيريا)، د.ت.، ص 67.

6 - ابن رشد، م.س.، 3: 472؛ ابن أبي زيد القيرواني، م.س.، ص. 67.

رقيقاً قتلناه ومن جدع أنفه جدعناه ومن خصاه خصيناه"⁽¹⁾. وإذا كان موقف الرسول من خصاء الغنم والخيل والإنسان واضحاً، فلماذا سكّت الفقهاء عن خصاء الإنسان؟ ولدينا نموذجان هما ابن أبي زيد القيرواني وابن رشد القرطبي، هذا في وقت سجل فيه أحد الباحثين أن هناك إجماع الفقهاء على تحريمه⁽²⁾. إذ لم نقف إلا على رأي الماوردي⁽³⁾ القائل "يمنع من خصاء الأدميين والبهائم ويؤدّب عليه"، كما وقفنا على إشارة إلى جملتين مخصيين في إفريقية خلال أواسط ق 2هـ/8م⁽⁴⁾.

ذهب الماوردي⁽⁵⁾ إلى أن خصاء العبد "لا يمنع من عقد الإمامة ولا من استدامتها بعد العقد لأن فقد هذين العضوين [الذكر والأنثيين] يؤثر في النسل دون الرأي والحنكة". وهو إقرار من الفقيه بأثر خطير ذي أبعاد عميقة، وهو انعدام التناسل، أي استمرارية الإنسان.

عرف المجتمع الإسلامي الخصاء والخصيان، على نطاق واسع، في مشرقه ومغرب⁽⁶⁾. وروى أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك هو "أول من اتخذ الخصيان من بني أمية"⁽⁷⁾. كما يروى أنه كانت له معاملة خاصة مع خصيانه "فإذا كان له خصي وضيء أمر أن يحجب عن نسائه، وقال: هو رجل وإن قطع منه ما قطع وربما اجتزأت امرأة بمثلها، وللعين حظها"⁽⁸⁾. وهو موقف ينم عن الاحتراس منهم، أو بالأحرى ممن "فرع منهم في صغره خلال عملية الخصاء"، حسب رواية عريب الخادم مصدر معلومات المقدسي⁽⁹⁾.

1 - ذكره أبو داود والترمذي والنسائي.

2 - عبد السلام الترماني، الرق ماضيه وحاضره، ط. 2، سلسلة عالم المعرفة، مطابع دار القبس، الكويت، 1985، ص. 117.

3 - أبو الحسن علي الماوردي، كتاب الأحكام السلطانية، دار الفكر، بيروت، د.ت.، ص. 258.

4 - الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص. 94.

5 - م.س.، ص. 19.

6 - E. LEVI-PROVENCAL, op. cit., 2: 122.

7 - أبو الحسن علي ابن القطان الفاسي، النظر في أحكام النظر بحاسة البصر، تحقيق: إدريس الصمدي، ط. 1، دار إحياء العلوم، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1996، ص. 219.

8 - أبو حيان التوحيدي، م.س.، 3: 201.

9 - م.س.، ص. 200.

وتقدم رواية طريفة، تهم مكة والمدينة تحت حكم سليمان بن عبد الملك، فكرة عن ممارسة السلطة السياسية للخصاء كوسيلة عقابية. فقد عرفت المدينتان تكاثر المخنثين، فكتب الخليفة إلى عامله: "إن هؤلاء يدخلون على نساء قریش ويفسدونهن، فورد الكتاب على ابن حزم فخصاهم"⁽¹⁾. غير أن الصولي⁽²⁾، وهو يتحدث عن خط الكتابة، من حيث جودته وردائه، يذكر أن الخليفة الأموي راسل عامله على المدينتين "بأمره بإحصاء المخنثين، فقال له أحص من قبلك من المخنثين، فقرأه اخص، فخصي منهم جماعة حتى خصي الدلال، فقال الآن والله أشبهنا النساء، هذا والله الختان الأكبر". ورغم اختلاف الروایتين، فإنهما تجمعان على وقوع الخصاء، من قبل ممثل السلطة بالمدينتين. وهو ما تؤكد رواية أخرى، من خلال الإشارة إلى مدينتي وشلوا وهدية في الحبشة الإسلامية، رغم معارضة الحاكم هناك، الذي كان "يمنع من خصي العبيد وينكر هذا ويشدد فيه"⁽³⁾.

واختص بعمل الخصاء اليهود⁽⁴⁾ في فرنسا، حيث اشتهرت مدينة فردان **Verdun** بهذه الصنعة⁽⁵⁾. وفي الأندلس اشتهرت مدينة قرب بجانة، وكان أهلها يهود، بالخصاء⁽⁶⁾. وينقل صاحب نفح الطيب⁽⁷⁾ عن الرقيق القيرواني أن المسلمين في الأندلس تعلموا الخصاء "فصاروا يخصصون ويستحلون المثلة".

1 - أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، تحقيق لجنة من الأدباء، ط. 5، دار الثقافة، بيروت، 1981، 4: 274.

2 - أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكتاب، تصحيح وتعليق: محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت (1341هـ)، ص. 59.

3 - العمري، م.س.، ص. 43.

4 - المقدسي، م.س.، ص. 200.

5 - رينهرت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، 2: 38؛ العبادي، م.س.، ص. 9.

6 - المقدسي، م.س.، ص. 200.

7 - أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، 1: 145؛ العبادي، م.س.، صص. 9-10.

وترد الإشارة إلى جهات أخرى اشتهرت بالخصاء، مثل أرمينيا التي اختصت بخصاء الرقيق الأبيض⁽¹⁾، وجزيرة الذهب⁽²⁾ في البحر المتوسط. ويبدو أن الخضاء كان عملية مربحة، فقد كان خصاء الرقيق وراء ارتفاع سعره. أشار أحد الدارسين إلى أن ثمن الخصي في بغداد، خلال ق. 3هـ/9م، كان أعلى من الفحل⁽³⁾. وهو ما تفصح عنه رواية العمري⁽⁴⁾ - التي تتحدث عن عملية الخضاء في زمانه - ذلك أن تجار الرقيق في بلاد الحبشة كانوا "يعرجون إلى وشلوا ليخصوهم بها، لأجل الزيادة في الثمن". وعرفت بلاد المغرب والأندلس الخضاء والخصيان، فقد حفلت بهم بلاطات الخلفاء والأمراء، في الأندلس خاصة، حيث عرف الخصي بالمحبوب⁽⁵⁾ أو الغلام⁽⁶⁾ أو الفتى⁽⁷⁾. فقد وُصف حاجب الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالمحبوب، وهو خصي يدعى جعفر الصقلابي⁽⁸⁾. كما أن الحكم الربضي عمد إلى حشد الخصيان في قصره "كان من جبروته يخصي من اشتهر بالجمال من أبناء رعيته، ليدخلهم إلى قصره"⁽⁹⁾. ويبدو أن صيغة الرواية لم تميز بين الأحرار والعبيد. فهل نحن أمام رافد جديد للاسترقاق؟

وفي بلاد المغرب، وردت الإشارة في الفترة الموحدية، إلى الخصيان، زمن الخليفة عبد المومن خاصة، وذلك في مناسبتين : الأولى عندما عاد من حملته في المغرب الأوسط، بنساء العرب وأبنائهم، حيث

1 - فهمي سعد، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة، ط. 1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993، ص. 142.

2 - أبو القاسم عبيد الله ابن خرداذبه، المسالك والممالك، تقديم وفهرسة محمد مخزوم، ط. 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص. 99؛ ويذكر الترماني أنها تقع قرب قبرص، م.س.، ص. 114.

3 - فهمي سعد، م.س.، ص. 285.

4 - م.س.، ص. 43.

5 - نسبة إلى ما عرفت به عملية قطع القضيب والأنثيين وهو الجب، الترماني، م.س.، ص. 115، والجب لغة القطع "والمحبوب: الخصي الذي قد استوصل ذكره وخصياه"، ابن منظور، لسان العرب، ط. 1، دار صادر، بيروت، 1: 367 (مادة جب).

6 - E. LEVI-PROVENCAL, op. cit., 2: 123.

7 - Loc. Cit.

8 - أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي المالقي الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، ط. 5، بيروت، 1983، ص. 73.

9 - أبو الحسن علي ابن سعيد المغربي وآخرون، المغرب في حلي المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1953، 1: 44.

أوكلهم إلى "الخصيان يخدمونهم"⁽¹⁾. مما يفيد بوجود الخصيان في البلاط الموحد، منذ وقت مبكر من عمر الدولة. والمناسبة الثانية يرد فيها الخصاء، وسيلة جزائية⁽²⁾؛ فانتقاماً للخليفة من مناصري أخوي المهدي، عبد العزيز وعيسى، اللذين ثارا عليه، "كانوا يقتلونهم بخصائهم"⁽³⁾. وهي إشارة لا نعتقد أنها تتطوي على مبالغة أو تحامل، فقد وردت لدى أحد خدام الدولة. والخلاصة أن بلاد المغرب والأندلس لم تتفرد عن جهات عديدة من العالم الوسيط، بـ"صناعة" الخصاء، مادامت تدر على التجار مبالغ مالية مهمة، ومادامت توفر للسلطة خداماً طيعين يدينون لها بالطاعة العمياء، ومادامت العملية رادعة للنوار ومناصريهم. فكيف لا تقبل الدولة على الخصاء، وهي التي تجني منه فوائد جمة. أما الآثار العملية في شخصية الرقيق، فإن ما يهم السادة هو نجاحهم، من خلالها، في تمييزه عن باقي أفراد المجتمع سلوكياً وعضوياً ونفسياً، ويسهل بالتالي إضعاف قدراته و"تدجينه".

¹ - أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مصطفى أبو

ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص. 418.

² - يعتبر الخصاء كعقاب ظاهرة قديمة، مارسها المصريون في حق الزاني، والأشوريون في حق السارق... الترماني، م.س.، ص. 115.

³ - أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور، الرباط، 1971، ص. 79.